الله
في أدب جبران خليل جبران

الدكتور جرجس شكيب سعاده*

مقدّمة

يوم ألقى المهاجرون رحلهم في الديار الأميركيّة، كانوا مضمّخين بعطر الشرق ونكهة ترابه. على وجوههم إشراقة شمسه وفي نفوسهم، من حضارته وتاريخه وعاداته والتقاليد، بصمات باتت متأصّلة لا يمحوها مكان، ولا يطويها زمان. حين أبحروا، سافروا على اسم «الله» وبركات «الله» ومشيئته. . . . ذلك بأنّ الربّ أطلّ على الشرق فكانت الديانات وفيه حلّ وتجسّد فأصبح الشرقيّ مسكونًا بالألوهة الحقّ حينًا، وبهواجسها حينًا آخر. وصار الله ودينه أو أديانه أقدارًا محتومة يفيء إليها الشرقيّ في الأفراح والأتراح، في اليسر والعسر، في السلم والحرب. ولو أحصينا ذكر الله عند جميع الأمم في الكون قاطبة، لما وقعنا على كمّ من التكرار يوازي ما نجده عند الشرقيّين في هذه البقعة المتوسّطيّة التي تجمع يهودًا ومسيحيّين ومسلمين والذين في ألفتهم أو تنابذهم، في انفتاحهم حتّى عناق الله، أو في تفوّقهم على خصائصهم وحصر الله ضمن حدودها كأنّه إله متعدّد، إنّهم في الحالين يتفوّهون بذكره، يردّده النَّرْدُ منهم عشرات المرّات يوميًّا.

(*) أستاذ في الجامعتين اللبنانيّة واليسوعيّة، بيروت.

فليس غريبًا إذًا، والحالة كذلك، أنْ يحمل اللبنانيّ المهاجرُ «الله» زادًا فكريًا ولفظيًا في باله وعلى لسانه وقلبه في ديار الغربة.

وإذا تتبّعنا أدب جبران نرى أنّ الله قائم فيه وهو إله متعدّد الصفات متنوّع الأسماء متحوّل تفترق سماته تبعًا للزمان والمكان، الأمر الذي يدلّ مبدئيًا على تأثّر هذا الأديب بالديانات «السماويّة» ووجوه الوحي فيها.

لذلك، سأسعى في البحث هذا إلى تسليط الأضواء على مفهوم الله في الديانات الموحّدة الثلاث، بغية إبراز وجوه التوافق بين نظرة جبران إلى الله من جهة، ونظرة كلّ منها إليه تعالى، من جهة ثانية. كما سأسعى إلى رصد العوامل التي حوّلت جبران عن الفكر الدينيّ التقليديّ ليصنع لذاته ملامح لدين جديد، أو ليبدّل في الوجوه المعروفة، ويبرزها كما يشتهي تبعًا لفلسفته الخاصّة في شؤون الدين والحياة.

أوّلًا: الله بين اليهوديّة وجبران

أ - مفهوم الله في التوراة أو العهد القديم

لا شكّ في أنّ اليهوديّة كانت الديانة الأولى التي رسمت خطًّا واضحًا بين الأرض والسماء: «في البدء خلق الله السماوات والأرض»[1]. وقالت بوحدانيّته تعالى: «إسمع يا إسرائيل، إنّ الربّ إلهنا ربٌّ واحد»[2]. وأنّه «روح يرفّ على وجه المياه»[3] ويستمرّ الأوّل والأخير[4] في ديمومة حضور[5]. هذا والإله في العهد القديم يؤنّب الإنسان الوثنيّ، ويسعى إلى تصحيح مساره في فهم الألوهة وإلى ردعه عن الخطيئة فكرًا وعملًا، وثنيه عمّا كسبه من عادات سيّئة في البيئات الوثنيّة

(١) العهد القديم (سفر التكوين ١: ١).
(٢) العهد القديم (تثنية الاشتراع ٦: ٤).
(٣) العهد القديم (تكوين ١: ٢).
(٤) العهد القديم (أشعيا ٤٣: ١٠).
(٥) العهد القديم (أشعيا ٤٠: ١).

المستسلمة لنزعاتها وشهواتها. وإنّ الله في منظار اليهوديّة «شخص حيّ»[٦]، وهذه الصفة تتكرّر في أسفار العهد القديم[٧] وهو يظهر ذاته نورًا أو عمودًا من نور. وقد اصطفى له شعبًا يكون بمنزلة ابنه الوحيد. وإنّ البون شاسع بين الله والإنسان[٨]. فالله إذًا منزّه عن الأشكال، لذا ترفض الشريعة الموسويّة صنع تماثيل له. ورغم هذا الفرق والبعد، فإنّ اليهوديّة تعتبر أنّ الله عادل يحاسب ولكنّه رحوم يسامح. وهو حكمة[٩] فاعلة ومشاركة في صنيع هذا العالم. ومن ثمارها تَحَوُّل بعض الشخصيّات، بقدرة إلهيّة، لتفعل أعمالًا استثنائيّة وتدفع الشعب باتّجاه الخلاص. لذلك سيكون المسيح المنتظر مملوءًا من روح الربّ[١٠] وهو الذي سيحمل بشرى الخلاص.

ب - جبران ومفهوم الإله عند اليهود

رفض جبران إله إسرائيل العتيق القاسي الذي لا يعرف الرحمة، والجالس أبدًا في كرسيّ القضاء يزن الأغلاط والهفوات[١١]. فهو يراه لطيفًا رحومًا. وموقفُ جبران من اليهود شعبًا متعصّبًا جعله يبتعد عن إلههم أو يبدّل في بعض سماته فلا يظلّ إليًا مختصًا ببني إسرائيل: «إنّ يهوه الذي أحبّكِ يا صهيون قد سلاكِ وحجب وجهه عن ربوعك، ورفع يده عن قلوب ملوكك، ورفع نقابه عن أرواح كهّانك، وأطفأ الشعلة التي أوقدها في نفوس أبنائك»[١٢]. وأضاف جبران أنّ سبب سقوطها هو تحويل وجهها عن الحقّ لتصير كالفاجرة. لقد ربط جبران، بطريقة غير مباشرة، موقفه من الله عند اليهوديّة بموقفه من اليهود. وصرّح للحويّك في باريس

---

(٦) العهد القديم (يشوع ٣: ١٠).

(٧) العهد القديم (سفر الخروج ١٣: ٢١).

(٨) العهد القديم (أشعيا ٤٠: ١٨).

(٩) العهد القديم (حكمة ٩: ٤).

(١٠) العهد القديم (حزقيال ٢: ٢، ٣ و٨: ٣).

(١١) جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة المعرّبة (في ما بعد: م.ك.م.)، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤، ص ٢٢٦.

(١٢) وهب كيروز، عالم جبران الفكريّ، دار بشاريا، لبنان، ١٩٨٤، مجلّدان، ص ١٨٣.

أنّه لا يرتاح للوسط اليهوديّ[١٣]. وهو لا يحبّهم مع أنّهم يثيرون إعجابه أحيانًا.

إنَّ رَفْضَ جبران للإله اليهوديّ، وإيمانه بالمسيح ابن الله، جعلاه يبدّل في المواضع التاريخيّة. في كتابه يسوع ابن الإنسان يعتقد أنّ البلاد الشماليّة أي الجليل ولبنان، قد استجابت لدعوة الناصريّ الروحيّة[١٤]، نقيض اليهود الذين رفضوا التسامي الروحيّ والابتعاد عن مظاهر الجاه الدنيويّ وأحلام التفوّق المزيّف. لقد سلخ جبران يسوع عن هويّته اليهوديّة على أنّه إله إسرائيل وأعطاه هويّته المسيحيّة على أنّه إله لجميع البشر. ورغب في شتات اليهود بين الأمم ليذوبوا في الوحدة الإنسانيّة من طريق المحبّة التي جعلها المسيح غاية في رسالته[١٥]. كلّ ذلك لا يعني افتراقًا تامًّا بين جبران واليهود، فهناك مواقف ائتلافيّة في النظر إلى الله.

يقول جبران: إنّ الله جَبَلَ الإنسان الأوّل[١٦]. ويذكر العهد القديم «جبل الربّ الإله آدم ترابًا من الأرض[١٧] وهو الرحمة[١٨]. وفي العهد القديم: إله الرحمة «كلّ سبل الله رحمة»[١٩]. كما هو القادر عند جبران[٢٠]. وإله إسرائيل كان قادرًا إذ صنع الأرض والسموات[٢١]. وكلّي المعرفة[٢٢]. وعند الأنبياء روح المعرفة[٢٣]. إنّه العادل الرحوم عند

(١٣) يوسف الحويّك، ذكرياتي مع جبران، حرّرتها إدفيك شيوب، مؤسّسة نوفل، بيروت ١٩٧٩، ص ١٤٥.
(١٤) م.ك.م.، ص ٢٤٠-٢٩٠-٢٩٨.
(١٥) نبيّ الحبيب، ج١، ص ١٤٦.
(١٦) المجموعة الكاملة العربيّة (في ما بعد: م.ك.ع.)، ص ٤٢.
(١٧) تكوين (٢: ٧).
(١٨) م.ك.ع.، ص ١٢٧.
(١٩) المزامير (مزمور ٢٥: ١٠).
(٢٠) م.ك.ع.، ص ١٣٤.
(٢١) تكوين (٢: ٤).
(٢٢) م.ك.ع.، ص ١٣٥.
(٢٣) أشعيا (١١: ٢).

جبران[٢٤]. والعادل الكلّي الرحمة في العهد القديم[٢٥]. وهو الروح في الموقفين[٢٦]. والباعث الروح[٢٧]. والمرسل الروح لتحلّق[٢٨]. ويرفّ عند جبران على وجه المياه[٢٩]. وفي العهد القديم: «وروح الله يرفّ على وجه المياه»[٣٠]. وهو عند جبران إله الحياة والموت والذي يحيي المؤمن، وغير المرئي، والعارف بالأسرار، والحنان والقاضي بحكمة، وروح قدّوس، وهو كلّ شيء[٣١].

وفي العهد القديم: نفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفسًا حيّة. ويعيد الله إليهم الروح، وإله إسرائيل مخلّص، والله ينظر إلى أقاصي الأرض، وهو حنّان رحيم ويتمتّع بالحكمة، وقدّوس وليس إلهٌ قبله ولا بعده[٣٢].

ثانيًا: جبران والله في العهد الجديد

أ - الله في العهد الجديد

تؤمن المسيحيّة بأنّ الله واحد، وتختلف عن اليهوديّة والإسلام في قضيّة التثليث التي تجمع الآب والابن والروح القدس في واحد. والتفسير الأفضل والأوضح للنظرة المسيحيّة إلى الله، ينطلق من قانون الإيمان[٣٣] الذي أعلن أنّ الله هو ثالوث أقدس: آب واين وروح قدس، وأنّ يسوع هو

---

(٢٤) م.ك.ع.، ص ١٤١.
(٢٥) حكمة (١١: ٢٣).
(٢٦) م.ك.ع.، ص ١٥٤. القضاة (٦: ٣٤).
(٢٧) م.ك.ع.، ص ١٥٥.
(٢٨) مزمور (١٠٤: ٣٠).
(٢٩) م.ك.ع.، ص ٤٤٠.
(٣٠) تكوين (١: ٢).
(٣١) راجع: م.ك.ع.، ص ٥١٢-٥٩٢-١٦٤-٢٢٤-٢٨٠-٣١٥-٣٤٦-٥٨٦.
(٣٢) راجع: (تكوين ٢: ٧) (مكابيّين ٧: ٢٣) (أشعيا ٤٥-١٥) (أيّوب ٢٨: ٢٣) (مزمور ١١٢: ٤) (أشعيا ١١: ٢) (مزمور ٩٩: ٣) (أشعيا ٤٣: ١٠).
(٣٣) وضعه المجمع المسكونيّ الثاني المنعقد في القسطنطينيّة سنة ٣٨١م.

ابن الله المتجسّد في أحشاء مريم بفعل الروح القدس، وهو الذي افتدى العالم بموته على الصليب وقيامته وصعوده ليدين الأحياء والأموات. والمسيح هو الله نفسه. والروح القدس هو الربّ المحيي الناطق بالأنبياء والرسل، والحالّ على الرسل في العنصرة، والباقي لقيادة الكنيسة إلى الحقّ. وهو خالق سرمديّ خالد أوحد، خارج الزمان والمكان، وكامل قادر على كلّ شيء، وقد خلق العالم من عدم، وهو محبّة تقوم على: الحبّ الذي يعطي وهو أقنوم الآب، والحبّ الذي يتلقّى وهو الابن (أو الإله المتجسّد)، والحبّ الذي يصل الآب بالابن وهو أقنوم الروح القدس.

ومن صفات الله في العهد الجديد: الآب (يوحنّا ١٤: ٩)، الآب القدّوس العادل (يو ١٧: ١١، ٢٥) الإله الحقّ وحده (يو ١٧: ٣) الحكمة (لوقا ٢١: ١٥) الحيّ (متّى ١٦: ١٦) خبز الحياة (يو ١٦: ٢٧، ٢٨) الديّان الأعلى (يو ١٦: ٢٧) ديّان اليوم الأخير (رؤيا يو، ٤: ٨، ٦، ١٠) الراعي الصالح (يو ١٠: ١١-١٨) الرحمة والنعمة (يو ١: ١٧) الرحوم الغفور (يو ٨/١٣) الروح (يو ٤: ٢١، ٢٤) الزارع الأمثل (مرقص ٤: ٣، ٩) السيّد (لو ٤: ٦) الطريق والحقّ والحياة (يو ١٤: ٦) العطاء (يو ٣: ١٦) العليّ (مر ٥: ٧) الفادي (مر ١٠: ٤٥) القدير (لو ١: ٤٩) الكامل (متّى ٥: ٤٨) الكلمة المتجسّدة (يو ١: ١، ٢، ٤) لم يره أحد (يو ١: ١٨) المبارك (لو ٢٤: ٥١) المتجلّي (متّى ١٧: ١-٩) المتواضع (متّى ٢١: ٥) المحبّة (يو ٤: ١٦) المحرّر (رومة ٦: ٦) المخلّص (لو ١: ٦٨) المعرفة (يو ١٧: ٣) المعلّم (متّى ٢٣: ٧-٨) ملك الأمم (رؤيا ١٧: ١٤) ملك الحياة (أعمال ٣: ١٥) المنتصر على الموت (يو ١٦: ٣٣) نور العالم (متّى ٨: ٢٢، ٢٦) الواحد (مر ١٢: ٢٩) يرى ما في الخفية (متّى ٦: ٤).

ب - جبران والمسيح

لقد نشأ جبران في بيئة مسيحيّة صرفة لا بل متصلّبة في شؤون الدين،

شكّل الكهنة فيها عددًا كبيرًا وكان لهم مكانة وشأن، فجاء ارتباطه بمسيحيّته عضويًا وبديهيًا[٣٤]. وهذا ما نتثبّت منه إذا عدنا بالذاكرة التاريخيّة إلى أواخر القرن التاسع عشر في بشرّي وتفحّصنا أنماط التربية وطبيعة العلاقات الاجتماعيّة. ولا بُدّ من الإشارة إلى أنّ والدة جبران «كاملة رحمة» كانت ابنة كاهن، وقد أثّرت عاطفتها الدينيّة بجبران الذي أحبّها حتّى العبادة[٣٥]. وقد تعبّد جبران الطفل للمسيح[٣٦] تعبّدًا عاطفيًا وإن كان إيمانه الكاثوليكيّ قد تزعزع أو تبدّل فيما بعد[٣٧]. وتعلّم، كما أخبرت بربارة يونغ[٣٨]، معرفة الله والملائكة من الأب يوسف. وأحسّ عن طريقه محبّة الله. ثمّ تلقّى في مدرسة الحكمة تربية دينيّة زادت تعلّقه بالناصريّ وبحبّ الله المسيحيّ «على الرغم من انزعاجه من النظام الصارم»[٣٩]. لقد اختزن جبران في لا وعيه تراثًا مارونيًا مسيحيًا روحيًا، جعل باحثين يعتبرونه سببًا لطموح جبران الروحيّ باتّجاه المسيح، طموح تجسّد مقالات وكتبًا ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بروح المسيح[٤٠]. والطفولة، كما يعترف كثير من الفلاسفة وعلماء النفس، نبع ثرّ يغذّي المستقبل فينا[٤١]. وهكذا ظلّت علاقة جبران بالمسيح تتوطّد إن كان في مدرسة «الحكمة» ببيروت أو في بوسطن أو باريس أو نيويورك. وظلّ الناصريّ في جميع الظروف الأقرب إلى قلبه[٤٢] لا بل ظلّ الهدف الأسمى واستمرّ جبران يتماهى به طيلة أيّام حياته.

---

(٣٤) ربيعة أبي فاضل، الفكر الدينيّ في الأدب المهجريّ، دار الجيل، بيروت، جزآن، م ٢، ص ٥٣٥.

(٣٥) سلمى الكزبري وسهيل بشروئي، الشعلة الزرقاء، رسائل جبران إلى مي زيادة، دمشق، ص ٨١.

(٣٦) ربيعة أبي فاضل، الفكر الدينيّ، م٢، ص ٥٥٣.

(٣٧) ربيعة أبي فاضل، الفكر الدينيّ، م ٢، ص ٥٣٨.

(٣٨) بربارة يونغ، هذا الرجل من لبنان، ص ١٣٢.

(٣٩) ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران، طبعة ١٠، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨٥، ص ٥٧.

(٤٠) A. Karam, *La vie et l'œuvre littéraire de Gubran*, Dar Al-Nahar, Beyrouth, 1981, p. 22.

(٤١) Gaston Bachelard: *La poétique de la rêverie*, P.U.F. Paris, 1960, p. 107.

(٤٢) ربيعة أبي فاضل، الفكر الدينيّ، ص ٥٥٤.

ج - الله عند جبران والمسيح الإله عند المسيحيّة، وجوه التقاء

لقد استمرّ جبران، كما ذكرنا آنفًا، يحدّق بوجه المسيح. إلّا أنّه كان ينظر شذرًا إلى رجال الدين الذين شوّهوا وجهه.

فمن الصور الإنجيليّة في أدبه: إنّ الله هو الكلمة، تجسّدت وصارت طفلًا بين ذراعي امرأة من البشر[٤٣]. وهو ابن الآب السماويّ[٤٤] والراعي الصالح[٤٥] والإله الإنسان بالجسد[٤٦]، والقائم من بين الأموات والمعزّي[٤٧] والذي سيهان ويصلب، لأنّ مجده في صلبه[٤٨].

وهو الإله الهابط من السماء إلى الأرض[٤٩]. وفي كتاب النبيّ، يسوع هو المختار[٥٠] والله اختاره ابنًا وحيدًا، وهو الحبيب، يفتدي البشر، وهو الفجر بذاته، وإله لم يخلقه أحد[٥١]. وهو الذي صلبته المحبّة «كما أنّ المحبّة تكلّلكم فهي أيضًا تصلبكم»[٥٢].

ونورد من الأمثلة المباشرة على الشبه بين جبران والمسيح الإله عند المسيحيّين: الله رحمة (م.ك.ع. ص ١٢٧) وفي العهد الجديد: كونوا رحماء كما أنّ أباكم رحيم (لوقا ٦: ٣٦).

هو القادر (م.ك.ع. ص ١٣٤) وفي العهد الجديد: الربّ الإله القادر على كلّ شيء (رؤيا ٤: ٨). هو كلّ معرفة (م.ك.ع. ص ١٣٥) وفي العهد الجديد: الآن نعلم أنّك عالم بكلّ شيء ولست تحتاج أن

---

(٤٣) م.ك.ع.، ص ٣٢٤.
(٤٤) المصدر نفسه، ص ٧٥.
(٤٥) م.ن.، ص ٧٩.
(٤٦) م.ن.، ص ٧١.
(٤٧) م.ن.، ص ٧٧.
(٤٨) م.ن.، مخطوط مريم تتكلّم، متحف جبران.
(٤٩) م.ك.م.، ص ٣٤٧.
(٥٠) م.ن.، ص ٨٢.
(٥١) م.ن.، ص ٤٧.
(٥٢) م.ن.، ص ٨٧.

يسألك أحدٌ، لهذا نؤمن أنّك من الله خرجت (يو ١٦: ٣٠). هو الذي يعطينا خبزنا كفاف يومنا (م.ك.ع. ص ١٣٧) وفي العهد الجديد: خبزنا كفافنا أعطنا اليوم (متّى ٦: ١١).

هو الروح (م.ك.ع. ص ١٥٤) وفي العهد الجديد: الله روح (يو ٤: ٢٤).

هو الذي جعل هيكله في صدورنا (م.ك.ع. ص ٣٩٦) وفي العهد الجديد: أما تعلمون أنّكم هيكل الله، وروح الله يسكن فيكم (كورنتس ٣: ١٦).

هو الذي يطعم الطيور بحسب الناموس الكلّي المطلق (م.ك.ع. ص ٤٣٩) وفي العهد الجديد: أنظروا إلى طيور السماء، إنّها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن وأبوكم السماويّ يقوتها (متّى ٦: ٢٦).

هو العرش الذي نشعر بوجوده ولا نراه (م.ك.ع. ص ١٦٤) وفي العهد الجديد: وللوقت صرت في الروح وإذا عرش موضوع في السماء (رؤيا يو ٤: ٢).

هو إله الحياة والموت الذي كوّن أرواحنا (م.ك.ع. ص ٥١٢) وفي العهد الجديد: مَلِك الحياة قتلتموهُ وقد أقامه الله من الأموات ونحن شهود لذلك (أعمال ٣: ١٥).

هو الذي يحيي المؤمن (م.ك.ع. ص ٥٩٢) وفي العهد الجديد: مَن آمن بي وإن مات فسيحيا (يو ١١: ٢٥).

هو غير المرئي (م.ك.ع. ص ١٦٤) وفي العهد الجديد: الله لم يره أحدٌ قطّ (يو ١: ١٨).

هو الذي يدري بالاجتماعات السرّيّة (م.ك.ع. ص ٢٢٤) وفي العهد الجديد: إنّ أباك الذي في الخفاء يراك (متّى ٦: ٤).

هو الذي يقوّي النفس البشريّة (م.ك.ع. ص ٢٣٢) وفي العهد

الجديد: يؤيّدهم الروح القدس بقوّة فائقة (أفسس ٣: ١٦).

هو بحر المحبّة (م.ك.ع. ص ٢٤٢) وفي العهد الجديد: الله محبّة (يو ٤: ٨).

هو الذي يهبنا الحياة الأزليّة الأبديّة (م.ك.ع. ص ٢١١) وفي العهد الجديد: مَن أكل جسدي وشرب دمي فَلَهُ الحياة الأبديّة (يو ٦: ٥٤).

هو الحنّان (م.ك.ع. ص ٢٨٠) وفي العهد الجديد: فلمّا خرج يسوع رأى جمعًا كثيرًا فتحنّن عليهم (مرقس ٦: ٣٤).

هو الروح القاضي بحكمة (م.ك.ع. ص ٣١٥) وفي العهد الجديد: فبالمسيح قوّة الله وحكمة الله (كورنتس ١: ٢٤).

هو روح قدّوس (م.ك.ع. ص ٣٤٦) وفي العهد الجديد: أيّها الآب القدّوس احفظهم في اسمك (يو ١٧: ١١).

هو الروح السرمديّ (م.ك.ع. ص ١٥٤) والروح الكلّي الخالد (م.ك.ع. ص ٣٢٣) وفي العهد الجديد: هو الإله السرمديّ الخالد (رومية ١: ٢٣).

هو كلّ شيء (م.ك.ع. ص ٥٨٦) أي البدء والنهاية. وفي العهد الجديد: أنا الألف والياء (رؤيا يو ١: ٨).

هو الكمال (م.ك.ع. ص ٥٢٩) وفي العهد الجديد: كونوا كاملين كما أنّ أباكم السماويّ كامل هو (متّى ٥: ٤٨).

إستنتاجًا إنّ أفكارًا كثيرة سجّلت لقاء بين جبران والمسيحيّة، إلّا أنّها لم تكن صافية عميقة الالتزام بل خالطتها شكوك وعثرات ناجمة من تأثير الأديب بالمناخات الأوروبيّة والأميركيّة في الفلسفة والعقائد نسبة إلى تيّارات ومذاهب متباينة، ومنها بلا شكّ تأثّراته الوثنيّة والتيوزوفيّة والهندوكيّة[٥٣].

(٥٣) ربيعة أبي فاضل، الفكر الديني في الأدب المهجري، راجع: ص ٢٦٩، ٥٣٧، ٥٤٥.

ثالثًا: جبران ومفهوم الله في الإسلام

لم يكن الوجه المسيحيّ وحيدًا في أدب جبران، بل إنّ الأثر الإسلاميّ بان واضحًا فيه. فالرجل قد اطّلع على القرآن ونهج البلاغة وما يلحق بهما. بالإضافة إلى ذلك فجبران من منبت مشرقيّ ولا بدّ من أن يتأثّر بما حدث على هذه الأرض في جميع الفصول والمناخات.

أ - الله في الإسلام

الإسلام هو تسليم للقدرة الإلهيّة الفائقة. فلا تفريق بين الإيمان والإسلام. والله عند المسلمين أزليّ ليس كمثله شيء، قادر على كلّ شيء. ويؤكّد القرآن هذه الوحدانيّة في عدّة آيات. ولكنّها تظهر بصورة أوضح في السورة ١١٢ الشهيرة التي تقول: «قل هو الله أحد، الله الصمد. لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤًا أحد». وثمّة ثلاث آيات يستشهد بها لتحديد مفهوم الله عند الإسلام: «كلّ شيء هالك إلّا وجهه (الأزليّة)، وليس كمثله شيء (التعالي المطلق الذي يحول دون أيّ شبه له مع الكائنات) ولا يُسأل عمّا يفعل (الإرادة المطلقة)، والله هو الحقيقة المطلقة وقد بلغت أسماؤه الحسنى أربعة وثمانين اسمًا. والإيمان بإله واحد هو ما يميّز، بنظر المسلمين، دينهم عن الديانات الأخرى تميّزًا جذريًّا حتّى عن المسيحيّة التي يعتبر المسلمون اعتقادها بالثالوث الأقدس مسًّا بالوحدانيّة ويصبغها بصبغة الشرك.

يعتبر المسلمون أنّ القرآن هو كلام الله وآخر الكتب المنزلة، وأنّ محمّدًا رسول الله ونذيره إلى أمّته. كما يؤمنون بالرسل الذين أرسلهم الله لهداية البشر كموسى وعيسى. وتظهر قدرة الله الكلّيّة في عمليّة الخلق. فقد خرج العالم من العدم في سبعة أيّام بمجرّد مشيّته. وخلق الإنسان في اليوم السادس بدون أن يستريح في اليوم السابع. وهناك سبع سموات، وسبع أرضين، وسبعة أقسام في الجحيم.

ولا بدّ من ذكر محطّات معيّنة وردت في القرآن تحدّد ملامح الله،

فهو الذي أوحى (إبراهيم: ١٣)، يرى كلّ شيء حتّى في الخفاء (آل عمران: ٥)، الذي يحيي ويميت (البقرة: ٢٨)، الحقّ (الحجّ: ٦) الحكيم (البقرة: ٢٠٩) الحيي (البقرة: ٢٥٥) الخالق (السجدة: ٩) ربّ العالمين (الفاتحة) الرؤوف الرحيم (البقرة: ١٤٣) السميع (البقرة: ٢٧)، الضياء (القصص: ٧١)، العفو (البقرة ١٨٧)، العليم (آل عمران: ١١٩) العليّ (الشورى: ٥١) الغنيّ (البقرة: ٢٦٣) الغنيّ الحميد (النساء: ١٣١) القدّوس (الحشر: ٢٣) القدير (البقرة: ٢٠) القيّوم (البقرة: ٢٥٥) المرجع (البقرة: ٢٨) مالك يوم الدين (الفاتحة: ٤) المطهّر (الأحزاب: ٣٣) الملك القدّوس المهيمن العزيز الجبّار (الحشر: ٢٣) الهادي (النساء: ٦٨).

ب - الله بين القرآن وجبران.

لا بدّ من الاعتراف بأنّ جبران وسم الله بميسم قرآنيّ. وإنّ كُتُب المتصوّفة المسلمين وبخاصّة ابن الفارض في تائيّته، والغزالي وابن عربيّ والحلّاج تركت الأثر البيّن في تحويل مسار مفهوم الله عند جبران نحو وحدة الأديان كمنطلق إلى وحدة الوجود.

ومن الثابت أيضًا أنّ جبران جمع في إحدى مفكّراته (سنة ١٩١٢) حوالي مائتين من أقوال النبيّ محمّد أو أحاديثه، ممّا يعني أنّه اطّلع على القرآن جيّدًا بالإضافة إلى كتب اهتمّت بالإسلاميّات[٥٤].

وفي هذا السياق نذكر بعض صفات الله الواردة عند جبران من جهة وفي القرآن من جهة ثانية.

يقول جبران: «حاكت نفسًا نفحة الله في الطين فصارَ إنسانًا (م.ك.ع. ص ٢٩٤) ويقول القرآن: «ثمّ سوّاه ونفخ فيه من روحه» (السجدة ٩٠).

---

(٥٤) خليل حاوي، جبران، إطاره الحضاريّ وشخصيّته وآثاره، نقله إلى العربيّة سعيد فارس باز، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢، ص ٣٠١.

يقول جبران: «أنت أنت السامع عويل نفسي (م.ك.ع. ص ٦٧). ويقول القرآن: «أنت السميع العليم» (البقرة ١٢٧).

وجاء عند جبران: «سوف تتغلّب الرحمة على القساوة لأنّها إلهيّة م.ك.ع. ص ١٢٧). وجاء في القرآن: «إنّ الله بالإنسان لرؤوف رحيم» (البقرة ١٤٣).

يقول جبران: «مِن وراء كلّ شيء قوّة هي كلّ معرفة وكلّ رحمة (م.ك.ع. ص ١٣٥). ويقول القرآن: «إنّ الله على كلّ شيء قدير» (البقرة ٢٠).

ورد عند جبران: «وذهبت روحه محمولة على بساط أعماله لتقف عارية أمام ذلك العرش» (م.ع.ك. ص ١٦٤). وورد في القرآن: «مالِك يوم الدين» (الفاتحة ٤).

ورد عند جبران: «أنت بصير عليم» (م.ع.ك. ص ٢٠٥). وورد في القرآن: «إنّ ربّك هو الخلّاق العليم» (الحجر ٨٦).

يقول جبران: «أنت جبّار» (م.ع.ك. ص ٢٠٥). ويقول القرآن: «الملك القدّوس... العزيز الجبّار المتكبّر» (الحشر ٢٣).

يقول جبران: «الله أكبر» (م.ع.ك. ص ٥٨٦). ويقول القرآن: «ولذكر الله أكبروا» (العنكبوت ٤٤).

يقول جبران: «ولم يَدْرِ باجتماعاتنا السرّيّة أحد سوى الله (م.ع.ك. ص ٢٢٤). ويقول القرآن: «الذي يرى كلّ شيء حتّى في الخفاء» (آل عمران: ٥).

يقول جبران: «كلانا ابن روح واحد قدّوس» (م.ع.ك. ص ٣٤٣). ويقول القرآن: «هو الله الذي لا إله إلّا هو الملك القدّوس» (الحشر ٢٣).

جاء عند جبران: «أمّا الأرواح فتظلّ في هيبة الحبّ حتّى يجيء الموت ويسير بها إلى الله» (م.ع.ك. ص ٢٩٤). وجاء في القرآن: «وإليه

ترجعون» (آل عمران ٨٣).

جاء عند جبران: «قوّة غير منظورة تميتني وتحييني ثمّ تميتني وتحييني حتّى يطلع الفجر» (م.ع.ك. ص ٣٨٠). وجاء في القرآن: «ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم ثمّ إليه ترجعون» (البقرة ٢٨).

يقول جبران على لسان آمنة: «قل: لا إله إلّا الله، وكن مسيحيًّا ولا شيء إلّا الله» (م.ع.ك. ص ٥٨٦). ويقول المسلمون حين يشهدون «لا إله إلّا الله».

وعليه، فإنّ جبران واكب اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام. فرافقها في الجوهر حتّى النهاية، وافترق عنها في الأشكال والطقوس افتراقًا يتّسع حينًا ويضيق حينًا آخر تبعًا للمناخات الشخصيّة والثقافيّة التي فعلت في كيانه عبر سنوات وعيه. فما هي إذًا أهمّ البواعث الشخصيّة والثقافيّة التي كان لها دورٌ في نظرته إلى الأديان.

رابعًا: أثر البواعث الشخصيّة والثقافيّة والأسطوريّة في نظرته إلى الأديان

أ - البواعث الشخصيّة والثقافيّة

قد يكون انطلاق الشرارة الأولى في الصراع بين جبران ورجال الدين، من عامل شخصيّ يكمن في حبّه لِحَلا الضاهر وتدخُّل أحد الأساقفة ليحول بينهما، أو تدخّل أحد الكهنة، ذات مرّة، لتأنيب جبران[٥٥]. إنّ مثل هذه الحوادث التي تبدو لبعضهم عابرة وطبيعيّة، هي في أساس مواقف كثيرة بنى عليها جبران حياته. واتّسع رفضه منطلقًا منها في بشرّي، مسقط رأسه، بالغًا أقصى حدود الرفض في نيويورك وإن على مستويات مختلفة وأنماط مغايرة، مرورًا باعتباره أنّ رفض رجال الدين طلاق أمّه من زوجها الأوّل يوسف جعجع كاد أن يحول دون مجيء جبران

(٥٥) ميخائيل نعيمه، جبران خليل جبران، ص ٣٢.

إلى هذه الدينا[٥٦]، واعتقاده، على حدّ قول بربارة يونغ، أنّ الكنيسة مثّلت له الحاضر الذي يحول دون الاتّحاد بيسوع[٥٧] ممّا دفعه إلى كره التميز الطائفيّ والطبقيّ[٥٨].

بالإضافة إلى ذلك، فإنّ جبران قد خاض في أميركا وأوروبّا تجارب عالميّة في العقائد والفلسفات والأساطير والآراء المتضاربة حولها جميعًا، ممّا جعل منه إنسانًا كثير الانفتاح متعدّد الاتّجاهات رافضًا التحجّر الدينيّ وجهل بعض القيّمين وانحرافهم عن جوهر مبادئهم، وتقوقعهم عند حدود أنانيّاتهم ومصالحهم الشخصيّة، وإن كان قد قاده النضج أخيرًا في المواكب والنبيّ إلى عود على بدء على أن تكون العودة إلى دين فطريّ طبيعيّ بريء خالٍ من الشوائب والنواقص والتناقضات.

وفي هذا المجال، ففي انفتاح جبران، في فرنسا وأميركا، على تيّارات ثقافيّة مختلفة، جاء بحثه عن حقيقة الله متعبًا وبخاصّة في خضمّ الحركات الروحيّة التي بثّت أفكارها في نفسه.

ونشير في هذا السياق إلى أنّ المصوّر الأميركيّ «فريد هولند داي» قد نصح جبران بقراءة عدد من الكتب، فأقبل عليها نهمًا باحثًا فيها عن الحقيقة الإلهيّة التي حنّ إليها حنينًا جارفًا تبلور في معظم كتاباته الأخيرة.

ب - البواعث الأسطوريّة

كان للكتب التي أهداها «فريد هولند داي» دور قويّ في دفع جبران إلى الابتعاد عن بعض المبادئ المسيحيّة. فبعد أن قرأ المعجم الكلاسيكيّ *The Classical Dictionary*، انتفض قائلًا: «لم أعد كاثوليكيًّا، إنّني وثنيّ»[٥٩]. زاد من هذا الابتعاد حقد جبران على رجال الكنيسة

---

(٥٦) وهيب كيروز، مخطوط رسالة طويلة عن المتصرّفيّة والهجرة، تشرين الثاني، ١٩٨٧، ص ٤٣.

(٥٧) Barbara Young, *This man from Lebanon*, KNGF, 7ème édition, 1954, p. 167.

(٥٨) م.ن.، ص ١٦٨.

(٥٩) وهيب كيروز، عالم جبران الفكريّ، ص ١٤٣.

ومواقفه السلبيّة منهم. ولقد سعى «داي» إلى إبعاد جبران عن كاثوليكيّته بتوجيهه إلى كتب ذات طابع وثنيّ، فأطلعه على كتاب كنز المتواضعين لموريس مترلينك، وعلى كتاب المزامير وأناشيد الأرض *Lyrics of earth*، وكتاب زمن الخرافة أو جمالات الميثولوجيا لتوماس بالفينتش *The Age of the Fable or Beauties of Mythology* by Thomas Bulfinch وأبرز ما تركت هذه الكتب في نفس جبران الشرقيّ، الميل إلى البروميثيّة والأورفيّة[٦٠] وإلى الرموز السابقة للمسيح والتفكير في الأعداد ومدلولاتها مثل الرقم سبعة الذي عرف في الأديان كما في الأساطير.

ومن الثقافات التي رجّهت جبران نحو الأسطورة، مطالعته كيتس وشلي. فكيتس أولع بالجوّ الخرافيّ وبالحضارات الإنسانيّة وأساطيرها الوثنيّة، وامتاز شلي بالمناخات الأسطوريّة بعيدًا عن الله. وقد قال جبران لميّ زيادة: «عليّ أن أقرأ عشرين قصيدة لكيتس وشلي وبلايك»[٦١].

لقد ثابر جبران على قراءة الأساطير التي بدأت تكوّن جزءًا من حقيقة يبحث عنها في ماضي الإنسانيّة، فعاد إلى الحضارات القديمة كالهنديّة والصينيّة والكلدانيّة والأشوريّة. وعبّر عن إعجابه بأبطال الأساطير وآلهتها. ففي دمعة وابتسامة نجد ذكرًا لآلهة الأساطير التي ناجاها[٦٢]، فتحدّث عن الآلهة: أدانو وعشتروت وأوزيريس ومنيرفا وأبولون وبعل إلخ... وفي الموسيقى تلمح مناخًا أسطوريًّا تتردّد فيه أسماء الآلهة الوثنيّة والحضارات القديمة. وفي عرائس المروج خلق جبران ناثان بن حيرام الكاهن ليدخل هيكل عشتروت حاملًا مشعلًا. وفي الأجنحة المتكسّرة صورة عشتروت المقدّسة إلى جانب صورة الناصريّ المصلوب.

لقد استمرّ العنصر الوثنيّ حاضرًا في ذهن جبران، فكم من مرّة تمنّى لو شاهد وجه أثينا، وجلس إلى خرائب الأكروبول، وصلّى في هيكل

---

(٦٠) وهيب كيروز، عالم جبران، مجلّد ١، ص ١٨٥. م ٢، ج ٤، ص ٨٢ و٣٥٧.
(٦١) الشعلة الزرقاء، ص ١٩٩.
(٦٢) م.ك.ع.، ص ٢٦١، ٢٧٦، ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩٦، ٣٠٠، ٣٢٤، ٣٣٩، ٣٤٦.

منيرفا. وقد شبّه حياته في الغربة بحياة أبولون.

وفي كتاب أضواء جديدة على جبران[٦٣] نلاحظ كيف أنّ توفيق الصايغ اعتبر جبران ذا منزع وثنيّ. ففي قول ماري هاسكل لجبران «يا بروميثوس، أيّها المسيح» ما يشير إلى مكانته عندها، ووصف جبران بما كان يحبّ. وفي رسالته إليها قال جبران: «إنّ بروميثوس هو الشخصيّة الجبّارة الوحيدة في الأساطير الإغريقيّة. لكن علينا ألّا ننسى أنّ جالب النار الأصليّ هو كلدانيّ وليس إغريقيًّا»[٦٤].

وقال جبران أيضًا: «أميل بكلّيّتي إلى كلّ شيء كلدانيّ، فأساطير هذا الشعب وشعره وصلواته وهندسته، تنبّه في داخلي تذكارات غامضة بعيدة، وتعود بي إلى الماضي الغابر فتجعلني أرى الحاضر من نافذة المستقبل»[٦٥]. وفي يسوع بن الإنسان تفتّحت بذور الآلهة الوثنيّة، وتكلّم جبران على المسيح إلى جانب عشتروت وتمّوز ديان وغيرهم[٦٦]. وقد تجلّت الوثنيّة بوضوح في كتاب آلهة الأرض، وعنوانه يدلّ على أنّ جبران قطع أشواطًا كبيرة في مرحلة الاعتراف بوجود إله الديانات الموحّدة، وتوصّل إلى البوح بأنّ «كلّ ما هو بشريّ لا قيمة له إذا ظلّ بشريًّا»[٦٧]. وقال بلسان الإله الأوّل: «أريد أن أسمو على ما يموت منّي في الأرض، وأتّخذ لي عرشًا في السموات»[٦٨]. والواضح أنّ المعالم الوثنيّة برزت في كتابات جبران متداخلة مع مذاهب جديدة كمذهب التجدّد وذلك في قصّة «رماد الأجيال والنار الخالدة» من كتاب عرائس المروج، وقصّة «الشاعر البعلبكيّ» في العواصف[٦٩]. ففي القصّة الأولى، جاء الموت ليفصل حبيبة ناثان ابن

---

(٦٣) توفيق صايغ، أضواء جديدة على جبران، الدار الشرقيّة، بيروت، ١٩٦٦، ص ٦٥.
(٦٤) م.ن.، ص ١٩٥.
(٦٥) الشعلة الزرقاء، ص ٥٠.
(٦٦) م.ك.م.، ص ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٥٣.
(٦٧) م.ن.، ص ٣٧٠.
(٦٨) م.ن.، ص ٣٧٥.
(٦٩) م.ك.ع.، ص ٤٧، ٤٧٢.

الكاهن حيرام عنه. فلجأ ناثان إلى عشتروت لتنقذ حبيبه بقوّة المحبّة. وتقول الحبيبة: «أنا راحلة إلى مسارح الأرواح، وسوف أعود إلى هذا العالم لأنّ عشتروت العظيمة تُرجع إلى هذه الحياة أرواح المحبّين الذين ذهبوا إلى الأبديّة». وفي القصّة الثانية، تعيد عشتروت لعليّ الحسينيّ حبيبته التي أضاعته منذ ألفي سنة وستّة أعوام. نلاحظ إذًا أنّ المسيح الكنسيّ في كتابات جبران الأولى (الأجنحة المتكسّرة والأرواح المتمرّدة) تحوّل إلى إله شبيه بيان وغيره من آلهة الوثنيّين والحضارات الأخرى[٧٠]. وسوف نرى أنّ يسوع سيخلع عنه ثوب الألوهة ويلبس ثوب إنسان عاديّ جاهد فتألّه كما يجاهد أي تائق للاتّحاد بالألوهة من دون العود المتكرّر. أمّا في النبيّ فنجد رموزًا وثنيّة. فألميترا جذر من ميتراس العائد إلى ديانة قديمة غامضة[٧١]. ولعلّ جبران عنى بألميترا إله النور والحقّ والعدل ورمز الأمل والخلاص في الديانة الإيرانيّة قبل الزرادشتيّة[٧٢]. وقد قال في إحدى مخطوطاته: «لم يمت أوزيريس حتّى جاء يسوع الناصريّ، ولم يمت ميترا حتّى جاء محمّد، فالإنسانيّة تغيّر أسماء أبطالها، ولكنّها لا تغيّر عقيدتها فيهم»[٧٣]. وهنا ينسجم مع ما دعا إليه شيلينغ Schelling الذي قال بأنّ إقرار مسيحيّة كونيّة يفرض بعض الميثولوجيا[٧٤]. ففكرة الوحي المسيحيّ في رأي شيلينغ، تأسّست على الوثنيّة.

إنّ عودة جبران إلى الأساطير ناجمة عن طبعه الحالم وشعوره بالضّيق في عالم التناقضات والمادّة وإلى إحساسه بالغربة. وهو، في ذلك، يشبه إمرسون القائل: «خير للإنسان أن يكون وثنيًّا مترعرعًا في بيئته من أن يكون مسيحيًّا عبدًا للعقائد المسيحيّة المتحجّرة»[٧٥].

---

(٧٠) م.ك.م.، ص ٣٣٤.

(٧١) توفيق صايغ، أضواء جديدة على جبران، ص ٢٢٨.

(٧٢) أنيس فريحة، دراسات في التاريخ، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢١.

(٧٣) وهيب كيروز، عالم جبران الفكريّ، ص ٢٠٨.

(٧٤) Xavier Tilliette, *Schelling, une philosophie en devenir*, Paris, 1970, t.2, p: 435, 467.

(٧٥) أمين الريحاني، مدار الكلمة، دار الكتاب المصريّ، ط ١، ١٩٨٠، ص ١٥٦.

لذلك اعتمد الأساطير فعاد إلى الحضارات الشرقيّة وبخاصّة الفينيقيّة والكلدانيّة. وكان لهذه المفاهيم الوثنيّة أثر في انحرافه عن إله المسيحيّة والكنيسة ودخوله عالم التقمّص والحلوليّة.

إنّ جبران مهّد لإسقاط مفاهيمه الوثنيّة على يسوعه بفصل «بين عشتروت والمسيح» في الأجنحة المتكسّرة. لكنّه ابتعد عن المضامين الوثنيّة اليونانيّة والرومانيّة ليحدّثنا عن صورة فينيقيّة هي صورة عشتروت إلهة الحبّ والجمال مع صورة المسيح، وقد رآهما في معبد فينيقيّ[٧٦]. لذلك سيجمع صورة المسيح إلى صورة أدونيس وأبولون وغيرهما[٧٧]. ويقول مارون عبّود، في هذا السياق: إنّ جبران استمدّ اعتقاده بالتقمّص من الشوق القائم في أساطير الفينيقيّين. وإنّ جبران وثنيّ المعتقد وإن كتب عن يسوع ما كتب[٧٨].

ربّما أراد جبران بإحيائه الآلهة الوثنيّة العودة إلى الكمال. فالعودة إلى الأساطير على أنواعها تعني العودة إلى الكمال البدئيّ أي إلى الجنّة[٧٩].

لقد توحّد يسوع جبران مع تمّوز وميترا وأوزيريس... في كتاب **يسوع بن الإنسان**، فمزج الكاتب حديثه عن يسوع بكلامه على أبولو الذي يحوّل القلب الجهول إلى حكيم[٨٠]. وقَدَرَ الفارسيّ إله يسوع، الذي هو نور طريق الناس، مع الإبقاء على إيمانه بزورستر الإله الذي هو شمس في السماء ونور في حضن الإنسان[٨١]. وبالتالي يكون جبران قد عبّر عن مفهومه لله بتنوّع حضاريّ ضاربًا في جذور الأساطير، هادفًا إلى تصوير

---

(٧٦) م.ع.ك.، ص ٢٢١.
(٧٧) م.ع.ك.، ص ٣٣٣.
(٧٨) مارون عبّود، مجدّدون ومجترّون، دار الثقافة - دار مارون عبّود، لبنان ١٩٦٨، ص ٢٤٣، ٢٤٤.
(٧٩) Mireca Eliade, *Le sacré et le profane*, Gallimard, Paris, 1965, p. 80.
(٨٠) م.ك.م.، ص ٢١٥.
(٨١) م.ن.، ص ٢٢٧.

الوحدة الكونيّة الروحيّة الجامعة بين جميع الحضارات.

هذه الوحدة بين الحضارات جعلت جبران يخلق الأشخاص هؤلاء في يسوع بن الإنسان ولكلّ منهم إلهه الخاصّ ينتمي إليه ويدافع عنه. إنّ الربط بين يسوع الإله وآلهة الحضارات الأخرى جعل يسوع وريثًا لغيره من الآلهة مع فارق في النوعيّة وفي التصعيد الروحيّ.

ج - جبران بين الماسونيّة والبروتستانتيّة

لا بدّ لي، قبل إنهاء هذه الدراسة، من أن أعرّج على الماسونيّة والبروتستانتيّة تعريجًا لمّاحًا بالقدر الذي تسمح به طبيعة البحث وضرورة الاختصار فيه.

١ - الماسونيّة

لقد شهدت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حركات روحيّة كبيرة هاجسها نبش كنوز الماضي لاستقراء الآتي والكشف ما أمكن عن مصير الإنسان وتطوّر مساره عبر التاريخ. وعلى الرغم من تشعّبات هذه الحركات وتعقيداتها، فإنّها تتّفق في العودة إلى الميثولوجيا والأديان، والربط في ما بينها بطريقة متستّرة للتوصّل إلى الحقيقة الروحيّة الوحيدة والجوهر الجامع للرموز والمفاهيم.

وسط هذا الجوّ الروحيّ الذي شهدته مدينة بوسطن، عاش جبران. فلم يكن غريبًا عن مسرحها. يضاف إلى ذلك أنّ طبيعة جبران الشرقيّة المفعمة بالروحانيّة وشؤونها وهمومها وألغازها جعلته يصغي إلى صوت هذه الحركات بهدف اكتناه أسرار النفس. وكانت الخطوة الأولى نحو الماسونيّة والثيوزوفيّة مع المرشد، السابق ذكره، «داي» الّذي كان يستقبله في الاستديو أعضاءُ نادي الكاميرا وهم إمّا ماسونيّون أو ثيوزوفيّون. لكنّ خوف جبران من قيود الأنظمة الماسونيّة جعله يهملها ويهتمّ بالثيوزوفيّة وليدة الماسونيّة[٨٢]، وإن كان أثر هذه الأخيرة ظلّ قائمًا في باله

(٨٢) =Boulos Tawk, *La personnalité de Gubran dans ses dimensions constitutives et*

بفعل ظلالها في البيئة والمحيط.

٢ - البروتستانتيّة

يدعو المبدأ البروتستانتيّ، من جملة ما يدعو إليه، إلى تطهير الدين من الظواهر الحسّيّة الملموسة كتكريم التماثيل والرسوم. ولا بدّ من الإشارة، في هذا السياق، إلى أنّ جبران خضع لنزعتين حيال التقاليد الدينيّة. فهو، في النزعة الأولى، مرتبط بموروثات طفولته في بيئة مشرقيّة لبنانيّة مارونيّة مسرحها بلدة بشرّي بما هي عليه من تصلّب في شؤون الدين ومراعاة للعقيدة والطقوس والعادات الدينيّة وممارساتها، وهي جميعًا متأصّلة في عقله الواعي أو اللاواعي. وفي النزعة الثانية منفتح على التيّارات الدينيّة والروحيّة الجديدة والبروتستانتيّة أوّلها وأهمّها، الأمر الذي يدفعه إلى الثورة على التقاليد القديمة.

لقد هيّأت له بوسطن المناخ الملائم للتخلّي عن مفهوم الله القديم خصوصًا وقد نشطت فيها الحركات الدينيّة النابعة من البروتستانتيّة والجمعيّة الثيوزوفيّة وغيرها، كما تمّ هناك إحياء الفكر الهندوسيّ والزرادشتيّ والفرعونيّ والإغريقيّ والبابليّ.

وفي مكتبة جبران كتاب بروتستانتيّ بدون غلاف لا بُدَّ أن يكون جبران قد اطّلع عليه، وهو يبيّن مدى حقد البروتستانت على الكاثوليك وعلى تعاليم رجال دينهم الشيطانيّة، بل قل هو يبيّن مدى التباين القائم آنذاك بينهما. وينتهي الكتاب إلى أنّ سيف الحقّ الإلهيّ هو بيد البروتستانت(٨٣).

وقد قرأ جبران أيضًا إنجيل أوزيريس وهو كتاب لقسّ بروتستانتيّ أهداه إيّاه وأعجب الأديب اللبنانيّ به. وقد عبّر هذا القسّ عن رغبة في استمرار صداقته مع جبران. وقال إنّ ما يجمعهما هو حبّهما لوليم بلايك.

---

existentielles, Bacharia, 1ère édition, 1985, t.2, p. 393.=

(٨٣) Boulos Tawk, *La personnalité de Gubran*, p. 379.

وقد قرأ صاحب هذا الإنجيل من كتابات جبران في كنيسة بروتستانتيّة في نيويورك[٨٤].

خلاصة واستنتاج

إنَّ الله حاضرٌ حضورًا بارزًا في فكر جبران، لكنّ طبيعة هذا «الله» تختلف تبعًا للثقافات والنظريّات والتطوّرات الطارئة في حياة جبران والتي أثّرت تأثيرًا جذريًا في إيمانه بهذا «الله» المتعدّد الألوان والسمات. لقد تعرّف جبران إلى الله - الثلاثة أقانيم في الكاثوليكيّة، والله الواحد - الأحد في الإسلام، وإلى الله الذي مات عند نيتشه، وإلى الله - الذات العظمى. وقد انحلّت فيه الأنا عند الهندوسيّين، وتعرّف إلى الله - الروح الكونيّة عند الثيوزوفيّين، وإلى الوثنيّ في الحضارات القديمة، وفي ضوء كلّ ذلك نجد أنّ الله عند جبران يتخطّى مفهومًا معيّنًا أو دينًا واضحًا ثابتًا، لا بل إنّ معالمه تتداخل في شبكة من التعقيد يصعب توضيحها. إنّنا في درْسِنا فكر جبران والتركيز على طبيعة «الله»، أمام أعصاب تنفعل بإحساسات عنيفة ورؤى متوتّرة تتلوّن بحسب الحالات في تجارب تضرب الفكر الجبرانيّ فتجعله في كلّ مرّة يجنح مع رياحها علّه يدرك أسرارها.

لقد اعترف جبران نفسه لماري هاسكل قائلًا: «لا يسعنا فهم طبيعة الله، لأنّنا لسنا «الله». بل بوسعنا تهيئة وعينا لفهم تعابير الله المنظورة، والنموّ عن طريق هذا الفهم»[٨٥].

وإذا رصدنا تحوّل جبران عن إيمانه بالله في الديانة المسيحيّة، نجد أنّ الجذور المسيحيّة راحت تُقتلع شيئًا فشيئًا من أعماقه نتيجة أسباب متنوّعة زادت في تغرّبه عن دينه الأوّل. فجبران أصبح يرى كلّ ذات أنّها جوهر الحياة: «أنا كنت منذ الأزل وها أنذا وسأكون إلى آخر الدهور وليس لكياني انقضاء». لقد أخذ جبران عن البروتستانتيّة حرّيّة الفكر في

---

(٨٤) Boulos Tawk, *ibid.* p. 382.

(٨٥) نبيّ الحبيب، ج ٢، ص ١٢١.

تفسير الكتاب المقدّس وأخذ يكوّن بهذه الحرّيّة مسيحيّةً فطريّة بعيدة عن مسيحيّة الإنجيل، قريبة من الصورة التي تخيّلها لدولة الطبيعة، وهكذا خلق يسوع جديدًا أسبغ عليه ملامح يسوع ولم يزوّده إلّا بأفكار جبرانيّة ممهورة بطابع التغيير. إنّ المسيحيّة لم تعد عند جبران غير فرع من فروع الدين الكلّيّ الواحد، طريق من الطرق المؤدّية إلى الحقيقة، فإذا محمّد ويسوع على قدر متساو من التقدير والمحبّة. ويمكننا القول إنّ الله عند جبران هو المحبّة ودين جبران هو التقاء العواطف الإنسانيّة، وعقيدة جبران هي وحدة الوجود وألوهيّةُ الكون وكونيّةُ الإله التي استقاها من الأفكار الهندوسيّة والبوذيّة وكتابات بليك وأعلام غربيّين آخرين في مدارس الفكر الحديث.

وعندما نقرأ جبران متحلّلًا شخص يسوع الناصريّ وهو يقول ليسوع الناصريّ: «أخشى يا صاحبي أنّنا لن نتّفق أبدًا أبدًا»[٨٦]، ندرك أنّ استعمال النفي هنا، ومن ثمّ التوكيد، يفسّر الانفصام الذي تمّ في فكر جبران بين الكنيسة والمسيح ممّا أدّى إلى ضياع ملامح المسيح الكنسيّ الإلهيّ. إنّ جبران لم يتقبّل في مرحلة نضجه الفكريّ فكرة الإيمان بالمسيح الإله، فهو يحلم شأنه شأن كلّ شرقيّ أن يصبح نبيًّا، فالآلهة الأرضيّة[٨٧] تحاول الوصول إلى القمّة والاتّحاد بها.

وما يزيد في تعقيد الخيوط في شبكة معرفة مفهوم الله عند جبران، عدم انصياع الفكر الجبرانيّ لمبدأ ثابت وموضوعيّة متكاملة. فقد اعتقد جبران في مرحلة ما أنّ الله ينمو أيضًا، فهو يقول في رسالة إلى ماري هاسكل: «يبدو لي كأنّ عينيّ بالذات ما برحتا تحفظان صورة ولادة الله، هذه البطيئة النموّ. أرى الله متصاعدًا تصاعد الضباب من البحار والجبال والبطاح»[٨٨]. ويتابع في الرسالة نفسها: «ليس الله خالقًا للإنسان وليس

---

(٨٦) م.ك.م.، ص ١٩٦.
(٨٧) في آلهة الأرض.
(٨٨) نبيّ الحبيب، ج ٢، ص ١٢٤.

الله خالقًا للأرض ولا يحكم الله الإنسان أو الأرض. فالله يرغب أن يصير الإنسان مثله والأرض مثله وكلاهما جزءًا منه. والإنسان والأرض وكلّ ما على الأرض يرتفعون إلى الله بقوّة الرغبة وهي القوّة الطبيعيّة التي تحوّل كلّ شيء. هي ناموس كلّ مادّة وكلّ ما هو حياة[٨٩].

وختامًا، فإنّ الدراسة تبقى ناقصة في مراميها لأنّ الأدب الجبرانيّ مطعّم بالمجاز يوحي ويرمز وليس أفكارًا موضوعيّة تحدّد وتجزم، فقد ثار جبران على مستوى التعبير في اللغة التي حمّلها رؤاه الجديدة. وخلاصة البحث في طبيعة الله عند جبران، أنّ الله موجود، هو الروح الكلّيّة الخالدة، والعودات إلى التجسّد ضروريّة لاستكمال تطهّر النفس وتحقيقها. هذه الثوابت الثلاث تساعد على استخلاص مفهوم الله عنده، فالله، في اعتقاده هو الكلّ وإنّه في كلّ مكان وهو ضمير العالم العاقل وهو في روح كلّ منّا ونحن في تسامٍ جاهد لنصير آلهةً بالفعل.

(٨٩) نبيّ الحبيب.

لائحة المصادر والمراجع

I - المصادر

١ - جبران، جبران خليل: المجموعة الكاملة العربيّة، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤.

٢ - جبران، جبران خليل: المجموعة الكاملة المعرّبة، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤.

٣ - جبران، جبران خليل: الشعلة الزرقاء، رسائل الحبّ من جبران إلى ميّ زيادة، تحقيق سلمى الكزبريّ وسهيل بشروئيّ، دمشق، ١٩٧٩.

٤ - جبران، جبران خليل: نبيّ الحبيب، رسائل الحبّ بين جبران وماري هاسكل، (جمعتها ماري هاسكل ونقلها إلى العربيّة الأب لورانس فارس)، بيروت، المكتبة الأهليّة، ٣ أجزاء، ١٩٧٤.

II - المراجع العربيّة الأدبيّة

١ - أبي فاضل، ربيعة: الفكر الدينيّ في الأدب المهجريّ، بيروت، دار الجيل، جزءان، ١٩٩٢.

٢ - جبر، جميل: جبران في عصره وآثاره الأدبيّة والفنّيّة، مؤسّسة نوفل، بيروت، ١٩٨٣.

٣ - حاوي، خليل: جبران، إطاره الحضاريّ وشخصيّته وآثاره، نقله إلى العربيّة سعيد فارس باز، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢.

٤ - الحويّك، يوسف: ذكرياتي مع جبران، حرّرتها إدفيك شيبوب، مؤسّسة نوفل، بيروت، ١٩٧٩.

٥ - الريحاني، أمين: مدار الكلمة، دار الكتاب المصريّ، ط ١،

القاهرة، ١٩٨٠.
٦ - عبّود، مارون: مجدّدون ومجترّون، دار الثقافة - دار مارون عبّود، لبنان، ١٩٦٨.
٧ - فريحة، أنيس: دراسات في التاريخ، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٨٠.
٨ - كيروز، وهيب: عالم جبران الفكريّ، دار بشاريا، لبنان، ١٩٨٤، مجلّدان.
٩ - كيروز، وهيب: مخطوط رسالة طويلة عن المتصرّفيّة والهجرة، تشرين الثاني، ١٩٨٧.
١٠- نعيمة، ميخائيل: جبران خليل جبران، طبعة ١٠، مؤسّسة نوفل، بيروت، ١٩٨٥.

III - المراجع الدينيّة

١ - الكتاب المقدّس (العهد العتيق، والعهد الجديد)، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦.
٢ - القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت.

IV - المراجع الأجنبيّة

١ - Bachelard, Gaston: *La poétique de la rêverie*, P.U.F. Paris, 1960.
٢ - Eliade, Mircea: *Le sacré et le profane*, Gallimard, Paris, 1965.
٣ - Karam, Antoine: *La vie et l'œuvre littéraire de Gubran*, Dar al-Nahar, Beyrouth, 1981.
٤ - Tawk, Boulos: *La personnalité de Gubran dans ses dimensions constitutives et existentielles*, Bacharia, Tomes 1, 2, 3, 1ère édition, 1985.
٥ - Tilliette, Xavier: *Schelling, une philosophie en devenir*, T.I, Paris, 1970.
٦ - Young, Barbara: *This Man from Lebanon*, KNGF, 7ème édition, 1954.